

(20)

مجموعة المائة بحث

لنكن صرحاء  
- عن واقعنا الجاهلي -

يونيو / 2009م

صدر في :

بقلم الدكتور :

طارق عبد الحلیم



مؤسسة الراية للإنتاج الإعلامي



## لنكن صرحاء - عن واقعنا الجاهليّ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعد

لنكن صرحاء، فالصرامة هي الأمل الوحيد الباقي لفهم أبعاد الأزمة الإسلامية الراهنة ومن ثم إيجاد الحل الأمثل لها. فإن غبش الصورة التي عليها الواقع وعدم فهم أبعاده هي العائق الرئيس وراء ذهاب الجهد هباءً، وليس أدل على ذلك مما رأيناه في منهج الإخوان المسلمين الذي لا زال يتخبط في عشوائية مهلكة على مدى العقود الخمسة الماضية، وما ذلك إلا لعدم فهم الواقع الذي تتعامل معه الحركة، ومن ثم عدم معرفة الممكن والمطلوب.

يكاد يُجمع الناس أنّ الأزمة الحالية هي أزمة بين الحاكم والشعب، فالحاكم ظالم مستبد، وفي غالب الأحيان مرتدّ موالٍ لليهود والنصارى، معادياً للإسلام والمسلمين، والشعب، من ثم، مغلوب على أمره. وهي صورة وإن كانت صحيحة إلى درجة ما، إلا أن الأمر ليس بهذه الثنائية البسيطة، فالمعادلة أعمق وأبعد غوراً.

الصورة الحقيقية التي تنعكس على صفحات حاضرنّا، في كافة بقاع الإسلام من أفغانستان إلى المغرب، تكشف مواجهة شرسة بين قطاعين من المجتمع، قطاع إنخلع دين الله الحق، ونبذ الإسلام وراء ظهره، وتخلّق بخلق الجاهلية وإرتدى ثيابها وتحدث بلسانها ولم يترك جحر صبّ دخلوه إلا ولجه وراءهم. ولا علينا إن كان من هذا القطاع من لا يزال يستعمل كلمات موهمة في حديثه، كأن تقول تلك "الراقصة" سأنتج رقصة جديدة في القريب إن شاء الله! أو يقول "الفنان" الحمد لله كانت حفلة رأس السنة ناجحة للغاية!! فهذه الكلمات إنما تعكس عادات تربى عليها الناس في بلادنا بل تجد كثيراً من النصارى من يستعملها، فهي أقرب إلى الثقافة العامة للأمة منها إلى الدين. ومعظم هذا القطاع هو من أهل الفنون والتمثيل و"الثقافة" المعاصرة كما يسمونها، على اختلاف درجاتهم فيها.

ومنهم من أظهر العداء للإسلام صراحة وأقام مراكزاً للهجوم على الإسلام ومبادئه وأصوله سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الخلقية، كصاحب مركز بن خلدون الذي سبّراً منه بن خلدون يوم التلاق. وهذه المراكز تعمل باسم نشر الديمقراطية أو تحرير المرأة أو حقوق الإنسان، أو تطوير المجتمع، أو ما شئت مما يجعل مركز ثقلها خارج البلاد، في أمريكا أو أوروبا، ومن هناك تأتي أوامرها وتستلهم اتجاهاتها.

ثم من هذا القطاع من ترك الإسلام لخواء روحه وسوء منشئه، فإنخرط في السيئات وفعل المحرمات، وتطلع إلى الفنانين والفنانات كمثّل أعلى يحتذيه، وهو الجزء الأكبر من هذا القطاع، وتجده في كلّ مكان، في الجيش والبوليس، والمكاتب الحكومية، والشركات الخاصة، وفي المنازل والإدارات، وهؤلاء هم القاعدة الأساسية التي تمثّل وجه المجتمع الجاهليّ.

وعلى رأس هذا القطاع يرسخ الحاكم متمطياً على ظهور هذه الطبقة، يعمل على نشر الفساد والفحشاء، ويعاونه في هذا من هم على شاكلته، وما أكثرهم، في البوليس والجيش لقمع الناس، ومن هم في الإدارات والمكاتب الحكومية بتنفيذ ورعاية النظم الجاهلية، بل وفي الدعوة لها، وفي ترسيخ الإنتهازية والعمالة والسرقة والنهب والكسب الحرام بالربا في قطاع "رجال الأعمال" والبنوك، بل وفي المؤسسات الدينية كمشيخة الأزهر التي بات رأسها "ملطشة" للسلطة، يخرج لهم الفتاوى "المعلّبة" متى شاؤوا، وينخرس

لسانه حين يعتدى الصهاينة الخبثاء على أبناء فلسطين، وحين يغلق النظام العلماني المصريّ معبر رفح في وجه متطلبات الحياة لهم، ثم اسوأ منه "المفتى" الذي نحسب أن لقبه الآن أقرب غشتاقاً من "الفتّة" لا من "الفتوى"! وهكذا في كلّ منحى من مناحى الحياة.

وهذا القطاع يمثل الكمّ الأكبر من الشعب، وإن ماطل في ذلك من إبتلاه الله بالإرجاء، وهذه هي القوى الحقيقية من بين يديّ الحاكم ومن خلفه، تحفظه من السقوط. وهذا الواقع "الجاهليّ" هو ما أشار اليه العلامة المودوديّ، وما فصله سيد قطب في ظلاله ومعالمه، وهو ما لم تفهمه القوى العاملة في الساحة الإسلامية آنذاك، ولا أنياً. فالمجتمع الجاهليّ هو مجتمع له مقوماته ومبادئه ومناصروه وأحباره ورهبانه الذين يحلون الحرام كما حرّموا الربا، ويحرمون الحلال كما حرّموا الجهاد في سبيل الله. هو مجتمع كامل لا يتصدى له

ثم القطاع الآخر هو قطاع من تمسك بدينه وعمل به، على تفاوت كبير في درجات هؤلاء، فمنهم من حضر الجمعة وصلى صلواته، على تراخ منه، ولكن حبّ الله ورسوله، ومن ثم التمسك بمفردات دينه وعدم ردّ أي منها، والإعتراف بالضعف عند الزلل، حَجَبَه عن الخروج من دائرة الإسلام، ومنهم من عمل لله ورسوله ونشّر دينه سواء فرداً أو جماعة، على إختلاف هؤلاء في فهمهم للدين، وللفرق بين السنة والبدعة ولتقييم الواقع، فكان ما نراه من "لخبطة" في واقع العمل الإسلاميّ وفشل في تحقيق أية نتائج ملموسة على أرض الواقع. ولكنهم، على تباعد مواقفهم، يمثلون "القطاع المضاد" في هذا الخضم الجاهليّ" المتسع، وهو الأقل حجماً وتأثيراً في الواقع.

ونحن نعلن أن البعض سيقول، بجهل، ما قاله أسلافهم، إنّ هذا هو المنهج التكفيريّ، وأن ذلك هو ما زرعه سيد قطب من تكفير للناس، ونقول، نحن لا نكفر معيناً إلا إن ثبت كفره العينيّ بدليل من الكتاب والسنة، فمن رفض الحجاب وقال إنه "موضة قديمة" فقد خرج عن الملة بلا خلاف عند أهل الفقه، ومن حكم غير شرع الله راضياً به ومدافعاً عنه، فقد خلع الرتبة، ولكن يبقى آحاد الناس وكلّ على مناطه الخاص. وهذا لا يمنع أن نقيم الواقع ونرى أن القطاع الجاهليّ فيه هو القاعدة الرئيسة التي يركز عليها الحاكم لتمرير أفعاله وإطباق يد العلمانية الجاهلية على المجتمع كله. فالأمر ليس أمر حكومة سيئة أو ظالمة، الأمر أمر برنامج ممنهج للقضاء على الإسلام، وتصفية القوى الإسلامية، حتى من يسمون أنفسهم "المعتدلين" كالإخوان، والعقود الخمسة السالفة شاهد على ذلك، بعد أن انبطح الإخوان كلية أمام النظام، ليكون لهم ولو دور سياسيّ بسيط في الحياة السياسية، فما أفلحوا، فإن كلّ ما يمتّ للإسلام بصلة من بعيد أو قريب ليس له مكان في هذه المنظومة الجاهلية الحديثة.

لنكن صرحاء، ولتكن فينا الشجاعة والحمية أن نرى الواقع على حقيقته، ثم أن نفكر ونقدر ماذا يمكن أن نعد له لنعود به إلى رحاب الإسلام، وهو ما سنحاول تناوله في القسم القادم إن شاء الله تعالى.

---

مما يجدر التنويه به هنا أن نؤكد على معنى الجاهلية إذ إن الإتفاق على هذا المعنى ضرورة لتوحد النظر في تقييم الواقع ومن ثمّ في تحديد المطلوب لتغييره. ولا نحسب أن المحاولات الإسلامية على مدى العقود الماضية قد فشلت في تحقيق تقدم حقيقيّ في تغيير الواقع إلا لعدم تحديد وفهم هذا المعنى أولاً ثم التعامل معه ثانياً. وإنه لأمر معلوم بالضرورة أنّه حين لا يتماثل مريض للشفاء وتتطاوّل مدة مرضه مع تعاطيه الدواء الموصوف فلا بد للطبيب أن يراجع تشخيصه وتقييمه للمرض ومن ثمّ لتبديل وصفة الدواء الشافي.

فالجاهلية ليست فترة تاريخية مرت بالبشرية قبيل عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ولّت إلى غير رجعة! بل الجاهلية هي حالة إجتماعية كانت ولا زالت تعيش فيها البشرية ما دامت ليست خاضعة لشريعة الله، أفراداً ومجتمعات. الجاهلية حضارة – إن صح إستعمال التعبير - لها مقوماتها وعقائدها ومواقفها التي تتلائم مع تلك العقائد والمقومات.

فجاهلية تقوم على فكر شيوعية المصادر والموارد حسب ما عقد لها ماركس ولينين من عقيدة تنكر الخالق، كما هو حال الصين وروسيا، وجاهلية تقوم على تأليه الملكية الفردية والتحرر من القيود الإجتماعية والخُلقية وتمجيد الرأسمالية حسب ما قدم اليهود للغرب من فكر ربوي وخراب خُلقيّ في القرن السالف، مع بقايا مسحات من الكتب السماوية المحرفة، لا تأثير لها في خلق ولا واقع، كما هو حال المجتمعات الغربية بعمامة، قال بن تيمية في إقتضاء الصراط المستقيم: " فقول - في هذا الحديث: " ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية " - يندرج فيه كل جاهلية، مطلقة، أو مقيدة، يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو صابئة، أو وثنية، أو مركبة من ذلك، أو بعضه، أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية، فإنها جميعها: مبتدعها ومنسوخها، صارت جاهلية بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان لفظ " الجاهلية " لا يقال غالباً إلا على حال العرب، التي كانوا عليها، فإن المعنى واحد".

وجاهلية مركبة إختلطت فيها شُعَبٌ من الجاهليات السابقة مع بعض من مقومات العقيدة الإسلامية ومظاهرها، تعمل في حياة بعض أفرادها وإن لم يكن لها أثر في توجيه الحياة الإجتماعية بعمامة، كما هو حال مجتمعاتنا العربية في أرض الإسلام. وهذه الجاهلية تنتسب لجاهلية الغرب في الخُلُق والمظاهر، وإن تخلفت عنها في روحها العلميّة التقنيّة، وما ذلك إلا لأنها جاهلية مستوردة طارئة لا تنبع من وجدان الأفراد وعاداتهم المتوارثة المتجذرة في كيانه على مرّ القرون الخمسة عشرة السالفة.

وقد ذكرنا إنقسام المجتمعات "الإسلامية" الحالية إلى غالبية إتخذت الجاهلية الصرفة رداءً وموقفاً، ظاهراً وباطناً، وإلى أقلية إحتفظت بدينها، وبما يملئ عليها هذا الدين من مواقف من الأحداث والأفكار والأشخاص التي حولها، على إختلاف فهمها لهذا الدين وإتباعها له. وحذرنا من خلط هذا التقييم للواقع الحاليّ بموضوع التكفير الذي إعتادت السلطة، وأذنبها من علماء السلطان الرسميين أنّ يخوفوا به الناس حتى يصرفونهم عن تقييم واقع الجاهلية الحديثة ومن ثم قبوله على أنّه واقع "إسلامي" يحتاج إلى بعض التعديل على أكثر تقدير. ولكن الجاهلية المطبقة التي تسيطر على الواقع الحاليّ تأبى إلا أن تفرض نفسها على كافة المستويات في الإعلام والفكر والإقتصاد والسياسة والإجتماع

اتفقنا على تعريف الجاهلية، وسلمنا بأن المجتمع المصري خاصة والعربي عامة يتألف من طائفتين، غالبية ارتمت في أحضان الجاهلية، بعلم أو بجهل، وطائفة تمسكت بدينها وبسنة رسولها صلى الله عليه وسلم، على إختلاف في قراءاتها للواقع من ناحية وإختلاف في توليها لمذهب السنة والجماعة. ومن المهم هنا أن نؤكد على أنّ النفاق – بإعتبار أنه إظهار ما يخالف الباطن – لم يعد له وجود حقيقي في عالم اليوم، إذ انتفت الحاجة إليه، بل إن الحاجة إليه قد انتفت منذ قال حذيفة رضى الله عنه، "إنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الآن فأيمان أو كفر"، وصدق حذيفة، فإن الكثير ممن إنخلع عن الإسلام طاعة وإتباعاً، وتعلق به إسماً وعنواناً، وردد مقالات الكفر وردّ الشرع الثابت، لم يدّع الإسلام كما أنزل على

محمد صلى الله عليه وسلم، بل تمسك بالإسم ثم تمرد على الحق. وهؤلاء كثير كثير ممن نرى على شاشات التلفاز، ونسمع على موجات المذياع، وهم ليسوا منافقين إذ إنهم يظهرون ما يبطنون، وما يظهرونه هو إندراء الشرع الحنيف ونفي مقرراته على أنها ليست من الشرع!

ثم يأتي السؤال ما هو الحل؟ ماذا نصنع للخروج من هذه الأزمة الحضارية الجاهلية؟ وأكذبكم القول إن إدعيت أن هناك حلاً سريعاً أو بسيطاً أو سهلاً لهذه الورطة التاريخية، بل الأمر معقد أشد التعقيد، صعب أشد الصعوبة، والحلّ يحتاج إلى وقت وجهد وفكر وتخطيط وقبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك يحتاج إلى العلم بالشرع، والتقوى والإخلاص.

وقد حاولت جماعات عديدة طرح حلول مختلفة متعددة خلال العقود التي تلت سقوط الخلافة العثمانية، ولكن هذه الحلول لم تستطع أن تنتشل المسلمين من الهاوية ولم تقدم لهم رؤية شاملة عامة قادرة على التغيير، بل قدمت كلها مساهمات محدودة في المجال الذي رأيته مفتاحاً للتغيير، من ذلك الحلّ السياسي الذي قدمته ابتداءً - ولا تزال - جماعة الإخوان، ثم حزب التحرير، على إختلاف بين الرؤيتين، والحل العسكري الذي قدمته الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد في السبعينيات وبعدها، والحلّ العلمي الذي قدمته جماعة السلفيين وأهل الحديث، وحلّ "قل كلمتك وامش" أو "الدعوة السلبية" الذي قدمته جماعة التبليغ والدعوة.

والعناصر المختلفة التي اجتمعت في هذه الحلول "الجزئية" هي أجزاء من كلّ إسلاميّ عامّ شامل، وهو ما يضع لنا أساساً للعمل الناجع ويرسم لنا صورة للتحرك المجدي لا العشوائي. العمل الذي يمكن أن يرتفع فوق أمواج الجاهلية العاتية التي تتلاطم في جنبات المجتمع يجب أن تتوفر فيه عناصر محددة، ولأن تتوفر في القائمين عليه صفات خاصة، وفي أعضائه والمنتسبين له ولا يصلح أحدهما دون الآخر كما لا تصلح الجراحة دون تحديد الموضع المصاب ودون مهارة الجراح، وسلامة ادواته على حدّ سواء.

والعناصر التي نحسب أنها لازمة للعمل الإسلامي هي الشمولية، العمومية، الشفافية، المرحلية، الواقعية. وكلّ عنصر من هذه العناصر يندرج تحته عدد من الأولويات والمفاهيم التي توجهه وتحدد مساره.

كما أنّ الصفات التي يجب أن تتوفر في القائمين على هذا العمل هي الإخلاص لله ولرسوله، والعلم بالشرع الحنيف علماً دقيقاً مستوعباً، النصح للمسلمين عامتهم وخاصتهم، العلم بالواقع على حقيقته، الحسّ بالمسؤولية، الصبر والمثابرة، الزهد السنيّ في الدنيا، ثم التوكل على الله سبحانه

أما صفات الأعضاء والأتباع فهي لا تختلف عن صفات القيادات إلا في الدرجة والكمّ لا في النوعية والكيف.

وسنأخذ في شرح هذه الصفات والكيفيات إن شاء الله تعالى

---

كما أسلفنا، فسنحاول فيما يأتي أن نخطط لعمل إسلاميّ متكامل، يستدرك على أخطاء الماضي ويعمل حساب الحاضر، ويهدف إلى بناء المستقبل. وسنبداً بوضع معالم هذا العمل و"استراتيجيته"، ثم، إن مكّنّا الله سبحانه، نضع تصوراً عملياً لهذا الجهد المبارك بناءً على معالمه واستراتيجيته. وقبل أن نبدأ بمعالم العمل، نود أن نشير إلى نقطة ذات أهمية قصوى في هذا المضمار، وهي تتعلق بما هو من قبيل التوقيفيات وما

يقبل الإجتهدات، ما هو من التأصيل وما هو من التفصيل، في هذا التصور، وهو أمر يجب أن لا يكون عليه خلاف بين من أراد أن ينال شرف الإنتساب إلى هذا العمل. ولنبدأ بعون الله تعالى في تناول المعالم.

### الشمولية:

الإسلام دين يوجّه الحياة الإنسانية بأسرها في كل ناحية من مناحيها، ويؤسس لكل وجه من أوجهها ما يلائمه من قواعد عامة أو أحكام خاصة تكون بمثابة الحدود التي تعمل من خلالها، ولا تتجاوزها، إجتهدات المجتهدين، حسب الواقع المعاش. وهذه الشمولية هي ما يجب أن تتفاعل مع أي عمل إسلامي جاد. وذلك بأن يُقدّم الإسلام ككل شامل دون تجزئة أو تبعيض. وهو المنهج الرباني الذي سارت عليه دعوة الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم على عهد الصحابة والتابعين، وهو ما قامت عليه الفتوح الإسلامية. ذلك أن الإسلام كلّ متكامل متواصل، لا يصلح بعضه دون بعض، وقد نعى الله سبحانه على من يفعل ذلك في قوله "الذين جعلوا القرآن عضين"، وكما ذكر الشاطبي في مقدمة الإعتصام من أن الإسلام كالجسد لا يسمى الصدر إنسانا أو اليد إنسانا ولكن الجسد ككل هو الإنسان.

والعمل الإسلامي المرتقب يجب أن يُقدّم الإسلام للناس من خلال "لا إله إلا الله" عنوان التوحيد وصدوره، بكل ما تحمل من معاني ربوبية الله وأسمائه وصفاته دون تأويل أو تعطيل، ومن الألوهية والعبادة والتحاكم إلى شرعه وإتباع أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وولايته المطلقة وولاية رسوله والمؤمنين، وما يتبع ذلك من ترك الشرك ظاهره وخفيه، وما قد يؤدي إليه من بدع وكبائر، مع توضيح مناطات محددة لهذا الولاء وهذه النصر، ولذلك البراء من الطاغوت وأهله. كما يجب أن يقدم للناس الأصول العامة في مسائل الفروع فإن من المتفق عليه أن كلّ قواعد الأحكام الفرعية قد تمّ تنزيلها في مكة تأصيلاً ثم في المدينة تفصيلاً وتفريعاً، كما في أصول الزكاة والجهاد. فهذه الأصول في التوحيد وفي الفروع لا يجوز فيها التأجيل ولا التأويل، ولا يتعلق بها إجتهد في التطبيق إلا بقدر ما يمكن أن يكون من مسائل المناطات لا الأحكام.

ولنكن في غاية الوضوح في هذه النقطة، فإن أي عمل إسلامي لا يلتزم بهذه الشمولية في الدعوة بلا أي تحول عنها أو تجاوز لمركباتها، لن، ونؤكد، لن يكتب له نجاح أو توفيق، ذلك أن هذا المنهج في تقديم الإسلام إلى الناس هو منهج رباني يعرف طبيعة الناس وما يؤثر فيهم سلباً وإيجاباً، وواقع الجماعات الإسلامية الحالية شاهد على ذلك.

فجماعة "الإخوان المسلمون" وإن بدأت طريقها أقرب للصحة وأهدى للرشاد، ثم مالت وحادت بعد أن عجزت عن أن تواكب المتغيرات الواقعية دون أن تتصل من شمولية الدعوة، ورضخت تحت مطارق الواقع للتعايش أولاً مع البدع والمعاصي، ثم نظرت ذلك بأنه أولاً سياسة للإستيعاب، ثم ثانياً أنه كما أن المجتمع واقعا يشمل المبتدع والعاصي في جنبااته، فكذلك الجماعة يسعها أن تتسع لمثل هؤلاء! ولكن ما غاب عن "الإخوان" هو ما عبرت عنه القاعدة الأصولية التي فحواها أن "ما يسع الفرد، لا يسع الجماعة"، وأن ما قد يباح أو يكره على الفرد، فإنه يكره أو يحرم على الجماعة، أو كما عبر الشاطبي "ما هو مكروه بالجزء فهو محرم بالكل"، و "ما هو مباح بالجزء فهو مكروه أو محرم بالكل" الموافقات ج3. وهذا الموقف المتسامح من الإخوان في مواجهة البدعة والمعصية، وإن لم يباركوها، يمكن أن يفهم على مستوى الفرد، على مستوى الدعوة الفردية، ليس على مستوى الدعوة الجماعية، كما هو معروف من أن الأمر إن وصل

إلى السلطان فلا مجال للتسامح فيه. من هنا فقد أخفقوا في التفرقة بين ما يجب أن يكون من معالم التربية الفردية من معاني التسامح والصبر وما هو من قبيل المواقف الأساسية الاعتقادية للجماعة في مقاومة البدعة ونصر السنة، وهو ما ظهر في موقف الجماعة من العديد من القضايا، ولعل آخرها وأهمها موقفهم من الروافض المجوس، بل وموقفهم الرسمي المشين في الجدل الذي قام مؤخراً بين د. محمد غزلان عضو مكتب الإرشاد، وبين ممول الجماعة يوسف ندا، وعجزهم عن تبني السنة والنعي على البدعة.

أما عن حزب التحرير، فأمره أوضح من الإخوان، وإنحرافه عن هذه الشمولية، كحزب أو جماعة، قد بدأ معه منذ النشأة، حيث التزم ابتداءً بمشروع الخلافة وتطبيق الأحكام وصرف النظر عن شمولية الإسلام، وتغاضى، كجماعة، عن الكثير من الانحرافات العقائدية، بل شابت فلسفته عقلانية المعتزلة، وتبني تقديم العقل على النقل، والتجسين والتفكيح العقليين، وهو ما جعل الكثير من فتاوى منظره شاذة في بابها، يعرف ذلك من عَرَفَ الحزب واختلط بأفراده.

ثم إن جماعة التبليغ والدعوة، مثلها مثل حزب التحرير، لن تتخذ الإسلام ككلّ مجالا لدعوتها، وإنما ركزت على توجيه النظر إلى إلزام العبادات، ثم شابت مبادئها ما شابها من جراثيم التصوف البدعي، فأنى لهم أن يدعوا إلى الإسلام في شموليته عقيدة وعبادة.

أما عن جماعات الجهاد ومن تبني نهجها في كافة أرجاء العالم الإسلامي، فإنهم كانوا أقرب الناس إلى تحقيق الشمولية في الدعوة، وإن تعثروا بعد ذلك في تحقيق صفة الواقعية والعمومية كما سنرى لاحقاً.

أما عن "السلفيون"، فإنهم على طرق مختلفة متباينة، لا تجمعهم "جماعة" بالمعنى المعروف منهم من شملت دعوتهم ولكنهم في غالب الأمر يتمثلون في دعاة رؤوس يلتف حولهم أتباع ومحبين، مما يجعل الحركة السلفية خليط بين الدعوة الفردية والدعوة الجماعية، وهو أمر واسع يمكن أن يكون موضوع بحث برأسه، ولكن، لغرض هذا المقال، فإن صفة الشمولية في الدعوة تتبع الداعية إن التزمها أو حاد عنها. إلا أنّ الصفة العامة للسلفية قريبة من النهج السديد في نشر السنة ومحاربة البدعة والمعصية، إلا أنه كذلك يغلب على العديد من رؤوسها تجاهل مفهوم الحاكمية وعمومية الولاة.

ويدخل في عموم مفهوم شمولية الدعوة أن تكون واضحة بينة ذات عمق، فإن السطحية في عرض المفاهيم بدعوى التبسيط لا تنتج إلا عقلاً ناقص الفهم والوعي، إذ يجب أن يستحضر المسلم مفهوم التوحيد في كليته وشموله دون إسقاط أي قدر منه حتى يتحقق التوحيد في نفوس الناس خاصة بعد أن إختلط المفهوم بالكثير من الغثاء على مر القرون، من علم كلام، وبدعة إرجاء وغيرهما، فاشتبهت معالمه وتاهت حدوده، وصار المسلم كافراً والكافر مسلماً وعمي الأمر عن السواد الأعظم من الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله!

من هنا وجب على الدعوة والدعاة أن يحضوا التوحيد وأن يجعلوه لبّ دعوتهم، بأعمق صورة وأوسع تطبيق، فلا يشتبه بغيره ولا يخرج منه ما هو فيه، ولا يدخل فيه ما هم من غيره.

**العمومية:**

ونقصد بعمومية الدعوة أن تشمل كل مناحي الحياة الإنسانية التي يتقلب فيها الناس، وأن تتوجه إلى كل أصناف الناس عربيبهم وعجميهم، أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالدعوة ليست خاصة بطائفة من الناس، كما نرى البعض ممن يطلقون عليه "داعية" يخصص دعوته للأغنياء من الناس، رغم أن القرآن قد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن خاصة في قوله تعالى "عبس وتولى".

كما أن الدعوة لم تكن لتحقيق عدل إجتماعي فحسب، أو مساواة أو ثراء أو تقدم حضاري أو تغلب عسكري أو نهضة إقتصادية، بل هي كل ذلك على وجه النتيجة لا الغاية، والمسبب لا السبب. لذلك كانت عمومية الدعوة في قلب المبادئ التي يجب على الدعوة الناهضة مراعاتها والإلتزام بمقتضياتها. فإن توجيه الجهد إلى تحقيق نصر عسكري على العدو، سواء من الداخل أو الخارج، ليس تحقيقاً للدعوة في عموميتها المطلوبة، والسعي وراء الخلافة والحكم ليس تحقيقاً للدعوة في عموميتها المطلوبة، والسعي وراء إنشاء البنوك الإسلامية ليس تحقيقاً للدعوة في عموميتها المطلوبة، والدعوة إلى محبة الجار وتشميت العاطس وتقصير الثوب وإطالة اللحية وإعتياد المساجد ليست تحقيقاً للدعوة في عموميتها المطلوبة، وإن كانت كلها أجزاء لا تتجزأ من الدعوة في عموميتها وشمولها.

ولا يظن أحد أننا ندعو الكل أن يقوم بالكل، أو أننا نقصد إلى إلغاء التخصص في المجال الدعوى، بل إننا نؤمن أشد الإيمان بالتخصص، خاصة في أيامنا هذه التي ضعفت فيها الهمم وقصر فيها الجهد والعقل أن يقوم بمطلوبات الدعوة في عموميتها وإتساع أغراضها، ولكننا نقصد إلى أنه حتى الدعوة المتخصصة لابد لها وأن تحوز على أوليات العمومية، وعلى متطلبات الشمولية، حين تبدأ في التحرك بين الناس، وأن تجعل في هذه المفاهيم مرجعية لا خلاف عليها، ونلحق هذا بمثال يبين الغرض المقصود. فمثلاً، إن أراد نفر من الدعاة ممن أعطاهم الله سبحانه وتعالى علماً بالحديث الشريف، أن ينطلقوا بالدعوة من خلال تعليم الحديث وشرحه ومصطلحه، فهذا جهد مبارك، إلا أن هؤلاء نفر يجب أن تكون من لوازم دعوتهم أن يذكروا حضورهم أن الفقه أمر آخر جلل له موقعه من الإسلام، إذ به يعلم المسلم حكم الوقائع الفردية التي يعيشها يوماً بيوم، وأن الجهاد أمر مفروض إلى يوم الدين بشروطه وأركانه وحدوده وفي محله، وأن التاريخ هو علم قرآني أرشدنا إليه الله سبحانه في ما لا يحصى من الآيات التي توجه النظر إلى تدبر أحوال الأمم السابقة ومعرفة الأحداث والوقائع الماضية، فإهماله إهمال لشق كبير من العلم الإسلامي،.. وهكذا في سائر علوم الإسلام وأحكامه عموماً وشمولاً.

من هنا فإن طرق الدعوة التي يمكن أن يسلكها الدعاة في العمل الإسلامي المرتقب يجب أن تكون من العموم والشمول بحيث تغطي الساحة والمساحة الإسلامية وأن لا تتقيد بفريق دون فريق، أو علم دون علم أو منحى دون منحى، بل هي، على تخصصها، لا يكاد يغيب عن عيون أفرادها عمومية الدعوة وشمولها لحظة، وإلا غاب عنهم نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاته في الدعوة.